

## ١٦ - عكاظ

تردد اسم عكاظ كثيراً وعلق به الناس، وزاره فيمن زاره خير الدين الزركلي، فقال يحدده، هو «على مرحلتين من مكة للذهاب إلى الطائف في طريق السيل، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين، فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها القانس (بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ ... وهذه الباحة هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن ... والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين أحدهما يسمى الدمة ... والآخر البهيتة ... وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل»<sup>(١)</sup>.

كانت عكاظ سوقاً للعرب في الجاهلية، واستمرت حتى سنة ١٢٩ [٧٤٧]، ثم هجرت أيام ظهور الحرورية. وفي هذه الفترة التي قصد العرب عكاظ يتسوقون ويتنافرون كانت السوق معرضاً عاماً. وما أصدق قول سعيد الأفغاني فيها، كانت معرضاً عاماً «بكل ما لهذه الكلمة من معنى. فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف. وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلجج بها الألسن في البوادي والحواضر. يحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليماني والعماني، كل ألفاظ حيه ولغة قطره، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلاً واصطفاء حتى يتبقى الأنسب الأرشق ويطرح المجفوف الثقيل.

«وهو السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعاته كما يحمل إليها أدبه، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغازة وبصرى، والسمن من البوادي، ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة والأدم، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح»<sup>(٢)</sup>.

نقل الجغرافيون عن عكاظ أنها «نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق». هذا زبدة ما يستخلص

من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ، تقوم السوق في مكان منه يعرف بالاثداء فيه مياه ونخل، وهو مستو لا علم فيه ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام. كانوا يطوفون حول صخور فيها، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها»<sup>(٢)</sup>.

وكان القوم يجتمعون في عكاظ في شوال ولكن السوق كانت تعقد في ذي القعدة فتستمر هناك عشرين يوماً ثم ينتقل الناس الى مجنة أياماً ثم الى ذي المجاز قرب عرفة ويظلون هناك الى يوم التروية فيبدأ الحج.

يقول المرزوقي عن عكاظ «كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب: كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد، والحلة الحسنة، والمركوب الفاره، فيقف بها وينادي عليه: «ليأخذه أعز العرب» يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته»<sup>(٤)</sup>.

وقد نقل الاستاذ سعيد الافغاني في كتابه أسواق العرب عن ابن الجوزي في مثير العزم الساكن عن عكاظ رواية لطيفة قال: «وكان كسرى يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه: «ان هذا بعثه الملك الى سيد العرب» فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسؤدد، فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية، وكان كسرى يريد بذلك معرفة ساداتهم، ليعتمد عليهم في امور العرب، فيكونوا عوناً له على اعزاز ملكه وحمايته من العرب...»<sup>(٥)</sup>.

ويمكن القول إجمالاً إن ما وصلنا من أخبار عكاظ، وهو متفرق في بطون الاسفار، يعطينا صورة ممتعة جداً للحياة العربية في فترة ما قبل الاسلام خاصة، وإن كان بعض هذه الصور ظل معبراً عن الحياة الى ما بعد قيام البعثة النبوية.

فمن تلك الصور ما روي عن الخنساء وهند بنت عتبة. فقد ذهبت الحروب بوالد الخنساء وأخويها صخر ومعاوية، فرثتهما وكانت تسوم هودجها لتلفت إليها الأنظار في عكاظ. فلما فقدت هند أباه وعمها وأخاها، عظمت مصيبتها فسومت هي الأخرى هودجها براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها. وتذهب الرواية في تفصيل الخبر فتقول:

ندبت هند أخاها بقولها:

من حسن لي الأخوين كـ	أفصنين أو من رأهما
قـرمان لا يتظالمـا	ن ولا يرام حمـاهما
ويلي علي أبوي والـ	قـبـير الذي واراها
لا مثل كهلي في الكهو	ل ولا فتى كفتاهما ... الخ

وقالت: «أقرنوا جملي بجمل الخنساء» ففعلوا، فلما أن دنت منها قالت لها

الخنساء: «من أنت يا أخية؟» قالت: «أنا هند بنت عتبة، أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنك تعاضمين العرب بمصيبتك، فبم تعاضمينهم؟»  
فقالت الخنساء: «بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو، وبم تعاضمينهم أنت؟»

قالت: «بأبي، عتبة بن ربيعة، وعمي شيبه بن ربيعة وأخي الوليد بن عتبة».  
قالت الخنساء: «أو سواء هم عندك؟! ثم أنشدت تقول:

أبكي أبي عمراً بعين غزيرة      قليل إذا نام الخلي هجودها  
وصنوي لا أنسى معاوية الذي      له من سراة الحرثين وفودها  
وصخرأ، ومن ذا مثل صخر إذا غدا      بساهمه الأطلال قبباً يقودها  
فذلك يا هند الرزية فاعلمي      ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها:

أبكي عميد الأبطحين كليهما      وحاميهما من كل باغ يريدها  
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي      وشيبة والحامي الذمار وليدها  
أولئك آل المجد من آل غالب      وفي العز منها حين ينمى عديدها»

ينقل الاستاذ الافغاني صورة أخرى لما كان يجري في عكاظ فيقول: «كانت الفرسان اذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنّعوا كيلا يعرفوا، وكذلك كان حال الشرفاء، فانه لا يوافي عكاظ شريف الا على وجهه برقع، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه، وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم، لا يتقنع كما كانوا يتقنعون.

«فوافي عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان. وتطوع منهم رجل للأخذ بثأره من طريف فقال لقومه: «أروني طريفاً». فأروه اياه، فجعل كلما مر به تأمله ونظر اليه فأمن النظر. ففطن طريف فقال: «ما لك تنظر الي» فقال: «أتوسمك لأعرفك، فله علي ان لقيتك يوماً أن أقتلك».

فقال طريف في ذلك:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة      بعثوا الي عريفهم يتوسم  
فتوسموني انني أنا ذلكم      شاكي سلاحي وفي الحوادث معلم  
تختي الأغر، وفوق جلدي نثرة      زغف ترد السيف وهو مثلم  
حولي أسيد والهجوم ومازن      واذا حللت فحول بيتي خضم  
ولكل بكري لدي عـدوة      وأبو ربيعة شانيء ومحلّم

فمضى لذلك ما شاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من أيام العرب فقتله

ثأراً لقتيله»<sup>(٧)</sup>.

ولا شك في أن من أَلطف الأصوات التي رددتها عكاظ قبل الاسلام صوت قس ابن ساعدة الايادي، يوم اعتلى جملاً فخطب في الناس قائلاً:  
«أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهـر، وبحار تزخر، وجبال مرسة، وأرض مدحاة، وأنهار مجرأة، ان في السماء لخبراً وان في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا».  
يقسم قس بالله قسماً لا اثم فيه: ان لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، انكم لتأتون من الأمر منكراً:

في الذاهبين الاولين	من من القرون لنا بصائر
لمـ رأيت مـوارداً	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قـومي نحـوها	تمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا مـحـا	لة حيث صار القوم صائر

هذه الصورة ظلت حية في نفس النبي اربعين سنة، وكان قد دعا الى الاسلام وقبله أهل بلاده، وقدمت على صاحب الرسالة وفود الاقطار. وكان منهم وفد من اياد قوم قس، وفدوا على رسول الله فسمع منهم وقال لهم: «ما فعل قس بن ساعدة؟»  
قالوا: «مات يا رسول الله».

قال: «كأنني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلوة، ما أجدني أحفظه».  
فقال رجل من القوم: «أنا أحفظه يا رسول الله». فتلاه عليه فلما انتهى قال النبي:

«يرحم الله قساً، اني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده»<sup>(٨)</sup>.

والصورة التي لا تبلى جدتها هي قصة الاعشى والمحلّق وبناته. فقد قيل: «كان الاعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة. وكان المحلّق الكلابي مثنائاً مملقاً، فقالت له امرأته «يا أبا كلاب، ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر؟ فما رأيت أحداً اقتطعه الى نفسه الا وأكسبه خيراً».

قال: «ويحك، ما عندي الا ناقتي وعليها الحمل».

قالت: «الله يخلفها عليك».

قال: «فهل له بد من الشراب والمسوح؟»

قالت: «ان عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها».

مر الشاعر فتلقاء المحلّق قبل أن يسبق اليه أحد، وابنه يقوده، فأخذ الخطام

فقال الأعشى: «من هذا الذي غلبنا على خطامنا» قال: «شريف كريم». ثم سلمه اليه فأناخه فنحّر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم سقاه، وأحاطت بناته به يغمزونه ويمسحنه، فقال: «ما هذه الجواري حولي؟» قال المحلق: «بنات أخيك وهن ثمان شريدتهن قليلة». ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى المحلق عكاظ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المؤزق      وما بي من سقم وما بي تعشّق  
ولكن أراني لا أزال بحـادث      أغادي بما لم يمس عندي ويطرّق  
ومنها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة      الى ضوء نار باليفاع تحرق  
تشب لمقرورين يصطليانها      وبات على النار الندى و«المحلق»  
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما      بأسحج داج: عوض لا نتفرّق  
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه      كما زان متن الهندواني رونق  
يداه يدا صدق: فكف مبيدة      وكف إذا ما ضنّ بالممال تنفق  
ومنها:

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم      فأنجد أقوام به ثم أعرقوا..  
فما أتم الأعشى قصيدته الا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه. ثم أتى المحلق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى: «مرحباً بسيد قومه» ثم نادى: «يا معشر العرب هل منكم مذكرار يزوج ابنه الى الشريف الكريم؟». فتسابق الأشراف اليه جرياً، يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى، فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة الا وقد زوجها. ولم تمس واحدة منهن الا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل<sup>(٩)</sup>.

## الهوامش

- (١) الزركلي، خير الدين: ما رأيت وما سمعت، القاهرة، المطبعة العربية ١٩٢٣، ص ٧٩-٨٠.
- (٢) الافغاني، سعيد: أسواق العرب، دمشق، دار الفكر، طبعة ثانية، ١٩٦٠، ص ٢٧٧-٢٧٨.
- (٣) أسواق العرب: ص ٢٨٦-٢٨٨، وياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٢.
- (٤) المرزوقي، ابو علي أحمد: الأزمنة والأمكنة، حيدر اباد، الدكن، ١٣٣٢ هـ، ج ٢، ص ١٦٥.

- (٥) اسواق العرب، ص ٢٨١ .
- (٦) نفس المكان، ص ٢٩٩-٢٩٨ .
- (٧) نفس المكان، ص ٣٠٧-٣٠٥ .
- (٨) نفس المكان، ص ٣١٥-٣١٤ .
- (٩) نفس المكان، ص ٣١٨-٣١٦ .

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية